أ.2-مرحلة التحول نحو الطبيعة الأندلسية (مدرسة في وصف الطبيعة)

تعرف طبيعة الأندلس بسحرها، وهو ما عبر عنه الشاعر ابن خفاجة قائلا:

يأهلَ أندَلسٍ لِلّهِ دَرُّكُمُ******** ماءٌ وَظِلٌّ وَأنهارٌ وَأشجارُ**

ما جَنَّةُ الخُلدِ إلّا في دِيارِكُمُ******** وَلَو تخَيَّرتُ هَذا كُنتُ أختارُ**

لاتخشوا بَعدَ ذا أن تدخلوا سَقراً********فَلَيسَ تدخَلُ بَعدَ الجَنَّةِ النارُ**

فهذا الجمال الطبيعي كان ملهما للشعراء ليبدعوا في وصف طبيعة الأندلس ومشاهدها الفاتنة. وقد وجدت في القصيدة الأندلسية عدة نماذج تبني رؤية جديدة للطبيعة الأندلسية بكل مكوناتها المتنوعة، من أنهار وسهول وجبال وغابات وأشجار، كما شكلت البساتين والحدائق والمنتزهات عناصر ملهمة للشعراء الأندلسيين؛ وتعد تجربة محمد بن سفر الذي عاش في القرن السادس الهجري إحدى أهم التجارب التي احتفت بالطبيعة الأندلسية وبكل جمالياتها، حيث يقول:

وصف الأندلس .. ابن سفر المريني:

في أرض أندلسٍ تلتذ نعماء ****ولا يفارق فيها القلب سراء

أنهارها فضةٌ والمسك تربتها**والخز روضتها، والدر حصباء**

وللهواء بها لطف يرق ب***من لا يرق وتبدو منه أهواء**

ليس النسيم الذي يهفو بها سحرا ولا انتشار لآلي الطل أنداء

وإنما أرج الند استثار بها**في ماء ورد فطابت منه أرجاء**

وأين يبلغ منها ما أصنفه؟**وكيف يحوي الذي حازته إحصاء؟**

قد مُيزت من جهات الأرض حين بدت ****فريدةً وتولى ميزها الماءُ

دارت عليها نطاقاً أبحر خفقت**وجداً بها إذ تبدت وهي حسناء**

لذاك يبسم فيها الزهر من طربٍ**والطير يشدو وللأغصان إصغاءُ**

فيها خلعت عِذارِي ما بها عوضٌ*فهي الرياض وكل الأرض صحراء**

فالقصيدة تحمل من المعاني الرقيقة ما يرق له القلب، وما يثبت ما كانت تحظى به الأندلس من محبة لدى الشعراء، لذلك نجد القصيدة مليئة بالصور التي تحاول وصف محاسن الأندلس وما تجسده من قيم التمسك بالوطن.

وقد رصد الدراسون ما جسدته الطبيعة الأندلسية من مصدر إلهام للشعراء، بل وجعلوا منها مكونا عاطفيا مساندا للشاعر، وهو ما تعكسه قصائد عديدة سنمثل لها بنموذج للشاعرة حمدة بنت زياد حيث تقول:

وقانا لفحة الرمضاء واد ** سقاه مضاعف الغيث العميم**

حللنا دوحة فحنا علينا** حنو المرضعات على الفطيم**

وأرشفنا على ظمأ زلالا** ألذ من المدامة للنديم**

يصد الشمس أنى واجهتنا ** فيحجبها ويأذن للنسيم**

يروع حصاه حالية العذارى** فتلمس جانب العقد النظيم**

وخرجت حمدة أو حمدونة شاعرتنا ذات يوم إلى وادي "شنيل" صحبة صبية، ولما خلعت عنها ثيابها وأخذت تسبح حانت منها التفاتة فرأت وجها وسيما خلب لبها فقالت مأخوذة وفي عينيها دمعة تنقر جفنيها، وتصف لنا حمدة الرملة من أراضي وادي "آش" ووواديا منها وصفا بارعا دقيقا كأنك تراه وإن لم تكن تراه، فتحس برغبة ملحة في أن تتفيأ ظلاله وتنعم بجوه اللطيف بين أزاهيره ودوحاته المائلات ترشف على ظمأ زلالا ألذ وأحلى من المدامة للنديم، فيه حصباء لامعة جميلة تروع العذارى اللابسات الحلي والجواهر فيتلمسن بأناملهن الرقيقة - دهشة من هذه الحصباء البديعة - جوانب عقودهن يحسبن أنها قد انتثرت من نحورهن فافترشت أرض الوادي.

إن التطور الحضاري الذي عرفته الأندلس، وأثر ذلك في المعمار جعل الأندلسيين يزينون قصورهم بالبرك المائية والنافورات، والتماثيل التي يخرج من أفواهها الماء، وكلها عناصر يمكن رصدها في أشعار الأندلسيين؛ إلى جانب ما استدعاه ذلك من عقد مجالس الأنس خاصة في أواخر عهد الدولة الأموية، لينتشر الشعر المرتجل حيث وصف القيان وكؤوس الخمر ومجالس اللهو. وكلها موضوعات جعلت الوصف في شعرهم تطغى عليه الصور الاستعارية من تشبيهات ومجازات.

-رثاء المدن والمماليك

استطاعت التجربة الأندلسية أن تفرز عناصر جديدة في الشعر العربي، ويتعلق الأمر بفن الرثاء وتخصيصا رثاء المدن والمماليك. فقد كشفت الدراسات قِدم هذا الفن الشعري لدى المشارقة، خاصة عند استحضار تجربة ابن الرومي في رثاء بغداد بعد حملة الزنج سنة 255هـ، إلا أن الفاصل بين هذا الرثاء عند المشارقة ونظيره عند الأندلسيين، هو أن شعراء الأندلس استطاعوا أن يفردوا له حيزا هاما حتى استقل بنفسه كفن معترف به، بل إن الشعراء طوروه في اتجاهات ثلاثة:

- **الاتجاه الأول:** خاص برثاء المدن الخربة والضائعة، وتعد أشعار أبي إسحاق الألبيري خير مجسد لهذا المنحى خاصة حين يصف مدينة البيرة وما حل بها من خراب.
- **الاتجاه الثاني:** انتقل فيه الشعراء من رثاء المدن إلى رثاء الدويلات الزائلة أثناء الحكم العربي للأندلس، وهي أشعار تكشف عن حجم ما عاشه العرب في الأندلس بعد سقوط دويلاتهم من قتل وأسر وتشريد، ويمكن التمثيل لذلك بأشعار ابن عبدون في رثاء دولة بني الأفطس في رائيته، أو رثاء ابن اللبانة لدولة بني عباد.
- **الاتجاه الثالث:** وخصصه الشعراء لرثاء المدن التي سقطت في يد الأعداء، وتعتبر قصيدة أبي البقاء الرندي (684هـ)، وهي قصيدة اعتبر عبد العزيز عتيق الشاعر من خلالها يعبر "بلسان كل الأندلسيين، ويشعر بمشاعرهم، ويترجم عن ثورتهم الدفينة المكبوحة، فكل بيت فيها يطالعنا جياشا بالعاطفة، مشحونا بالأسى، مبللا بالدموع، تفجعا على ما آل إليه حال الإسلام والمسلمين بالأندلس". (الأدب العربي في الأندلس، ص. 325-326).